



علم الطبقات بين علماء الحديث وأهل الأدب



مريم العدوية

من اللافت للنظر وجود عدد كبير من كتب المكتبة العربية القديمة تحمل لفظة «طبقة»، في عناوينها؛ حيث صنّف الكُتّاب العرب أعلامهم في شتى العلوم في كتب - كل وفق مجاله - فكان لعلماء النحو كتب، ولعلماء الحديث أخرى... وهكذا دواليك في مختلف العلوم. ولقد أورد المؤلفون مع كل عالم معلومات مهمة لمن أرد أن ينهل من علمه؛ حيث إن الوصف الزماني والمكاني والسيرة الذاتية للعالم مهمة؛ لمصادقية العلم المتناقل. وفي هذا الصدد، جاءت مقالة محمد أمين تحت عنوان «مفهوم الطبقة بين المحدثين والأدباء». ليوّضح الفرق بين كتب الطبقات عند المحدثين والأدباء.



فقط بعين الاعتبار. رابعاً: ضابط المكان؛ ولقد كان للمكان أهمية لدى العلماء؛ لما له من أثر على شخصية الرجل من ناحية البيئة ومن ثم في إنتاجه الفكري؛ فأبو بكر الزبيدي مثلاً بدأ بالترجمة لعلماء البصرة والكوفة ثم القيروان والأندلس؛ وذلك لتقدم أهل البصرة والكوفة في علم العربية وسبقهم على التأليف فيها. ومن جانب آخر، تتبع ابن سعد أماكن الصحابة بالمدينة ثم مكة فالطائف فاليمين واليمامة. وفي هذا أخذ على ابن سعد التكرار؛ حيث إن بعض الصحابة اتخذوا أكثر من مكان مما أدى إلى تكرارهم في أكثر من طبقة وأيضاً أخذ عليه أنه لم يرتب الأعلام ليسهل البحث. وأما عن ابن سلام فلقد راعى أثر البيئة في الإبداع لذا قسم الشعراء إلى باديين وحاضرين إيماناً منه بأن الشعر الجاهلي هو شعر البادية، كما فصل بين شعراء البادية وشعراء القرى ومن العيوب التي نتجت عن ذلك: أننا بتنا لا نفرق بين طبقة حسان بن ثابت وقيس بن الخطيم، كما كسر قاعدة الكتاب حيث كان في كل طبقة أربعة شعراء، كما يحدد السبب الذي جعله يذكر هذه القرى دون غيرها. وبما أن الشعر يكثر في الحروب فقد كثر في البادية؛ فالشعر شعر فخر وقتال وحروب وهذه الأمور تكثر في البادية. كما لاحظ ابن سلام لبؤنة شعر القرى وجزالة شعر البادية. ولقد تعددت الطبقات؛ لتنوع الاعتبارات واختلاف وجهات نظر التقسيم وكان لهذا الاختلاف الفضل في نشأة بعض العلوم وكثرة العلماء، ففي مكة ذاع صيت الخليل بينما البصرة والكوفة أصبحتا دار علم. وعرفت مكة والمدينة بالتفسير والفقهاء والشعر وبغداد بالملك.

... إن علم الطبقات علم عربي أصيل للأسف، ضاع اليوم مع غياب الدارسين له والمهتمين به، وبيات من الجدير بالمهتمين بالإرث العربي الالتفات له وإعادة الروح إليه، من خلال دراسته وتعريف الأجيال الجديدة به، كما أن المتابع لنشأة ومسيرة هذا العلم يتبين له مدى مصداقية العلوم العربية المتناقلة؛ حيث كانت تخضع لكثير من التمحيص والتدقيق، ولم يكن يقبل العلم المتناقل بعشوائية.

ورواة الحديث؛ ومنها:
أ- كتاب الطبقات للواقدي (ت ٢٠٧هـ).
وقد اختلفت جُل هذه الكتب في المنهج رغم اتفاقها في الهدف، وهو خدمة القرآن والسنة ويقسمها العلماء إلى قسمين:
١- قسم بنى مؤلفه على أساس الطبقات والمدارس.
٢- قسم بنى مؤلفه على حروف المعجم.

ثانياً: ضوابط التصنيف حسب الطبقات:

وضع العلماء قواعد على أساسها يتم تحديد الطبقات؛ منها:

١- الدين؛ فعلم اللغة في الدين هو من فروض الكفايات. كما أن مفهوم الطبقة عند المحدثين مأخوذ من بعض الأحاديث.
٢- ضابط العدد؛ حيث يختلف عدد الرجال في الطبقة الواحدة من كتاب إلى آخر، فبعض المؤلفين حددوا العدد وبعضهم لم يحدد. ومن جانب آخر، وجد ابن سلام الطبقة وسيلة جيدة لطرح أفكاره، وكان لديه ثلاثة خيارات في ذلك.. هي:

١- أتمودج الفكرة الطبقة الدينية.
٢- أتمودج الطبقة الفنية.
٣- أتمودج الواقع الطبقي الاجتماعي.

فالطبقة كانت تشمل الجمع، وشروطها صارمة، ومن الصعب انتقال الفرد من طبقة إلى أخرى إلا في ظروف استثنائية قليلاً ما كانت تحدث.

وأما عن الطبقة التي تأثر بها ابن سلام، فيمكن القول بأنه تأثر بكل الطبقات سائفة الذكر؛ حيث نستطيع تفسير بعض مما ذهب إليه في كتابه على أنه تأثر ببعض تلك الطبقات.

ثالثاً: ضابط الزمان:

لقد كان كل من الزمن والكفاءة العلمية مقياساً للرجال؛ فلقد اختلف النحاة واللغويون في اختيار الرجال من خلال وفاة الرجل وعلمه. ولقد كان لمعرفة وفيات الرجال وأعمارهم دور كبير في ردع الرواة عن الكذب.

كما أن ضابط الزمن يختلف من وجهة نظر المحدثين عن الأدباء؛ حيث يدقق المحدثون جداً؛ لأن الأمر متعلق بمدى صدق الرواة بينما الأدباء يأخذون ما يقيد في الجانب الأدبي

استهل محمد أمين مقالته بشرح العلاقة بين علوم اللغة والشريعة؛ حيث إن القرآن مصدر كل علوم حضارة العرب، وهناك رابط قوي بين اللغة العربية والعلوم الشرعية؛ فلقد كان حفاظ اللغة يتفوقون مع المحدثين في تفسير كل غريب من كلام العرب بالإصلاح والجرح والتعديل.
ومن ثم تطرق إلى مفهوم «الطبقة» في اللغة؛ فأورد ما يُشير إليه هذا المفهوم لغةً واصطلاحاً، مديلاً كل معنى جاء به بأدلة من القرآن والسنة؛ فالطبقة في اللغة هي غطاء كل شيء والمطابقة والمساواة والموافقة، وهي كذلك بمعنى العضو والقطيع أو الجماعات، كما تأتي بمعنى الأجيال والمنازل والحال، وأيضاً تأتي مرادفة لقرن من الزمان. ومن جانب آخر، فإن لفظ «الطبقة» تختلف من علم إلى آخر؛ فهي عند المحدثين تختلف في جوهرها عن الفقهاء أو النحويين؛ وذلك وفقاً لخصوصية كل علم من العلوم. ولقد تفرّد العرب بعلم الرجال/ علم الطبقات حتى أصبح هذا العلم من علوم الحضارة العربية والإسلامية الفريدة؛ فهو فن من الفنون العلمية التي لم تظهر من قبل في أي أمة أخرى إلا في عصرنا الراهن.

... اختار محمد أمين ثلاثة فروع من علوم العرب؛ ليستخلص منها مفهوم «الطبقة» من بين الكثير مما ألف في علم الطبقات:

أولاً: علم الطبقات من علوم العرب الأصيلة:

نظراً لوجود عدد كبير من العلماء العرب في مختلف المجالات، نشأ علم الطبقات الذي يعني بوضع تراجم وفق ضوابط وقواعد معينة، حيث وضع المؤلفون الرجال في طبقات مثل النحويين، ثم دونوا كل ما يخصهم من أخبار وسير وآراء ومن أمثلة ذلك:

١- كتاب طبقات النحويين البصريين وأخبارهم للمبرد (ت ٢٧٦هـ).

٢- كتاب طبقات الشعراء لابن المعتز.
ولقد كان وضع طبقات الشعراء والترجمة له من الأهمية بمكان؛ لما في ذلك من حفظ للغة التي يحتج بها في القرآن والحديث؛ فلقد كان الشعر هو الرافد الأساسي المسجل لكل العلوم العربية، ومن جانب آخر لم تكن له قيمة بمعزل عن دوره الديني؛ فبالشعر كانت تفسر آيات القرآن والأحاديث؛ حيث كان القرآن من أجل المسائل فتمحوّرت حوله كافة العلوم والفنون، وجاء الحديث شارحاً له واللغة العربية الأداة الناجحة لفهمه؛ فالحديث الذي ينقل بالرواية الشفهية أصبح له علم مستقل يعرف بعلم الرجال. ولقد كان ثلوث الصدق والأمانة والثقة هو الركيزة الأساسية التي من أجلها وجدت التراجم فكانت طبقات المحدثين أول هذا الفن ظهوراً، فتم غريبة رواة الحديث بمنهجي: الجرح والتعديل، وخرجت بالتالي لنا كتب المحدثين